متى ٢٢، ١٥-٢٣، ٣٩

الثلاثاء العظيم (في السحر)

ديناميكية المحبّة والعدم الفريسيّ

في صلاة الختن الثانية لسحر الثلاثاء العظيم المقدّس تضع الكنيسة المقدّسة أمامنا تـذكار مَثَـل العذارى العاقلات. والنصّ الإنجيليّ الذي سمعناه يُقسَم إلى قسمين:

القسم الأوّل هو جدال بين يسوع وبين فئات مؤمني عصره. وفي هذا الجـدال طَـرحَ عليـه الفريسيّون أسئلة محرجة ليمسكوه بكلمة، لذلك أحرجوه بموضوع الجزية. وجاء الصدوقيون يسـألونه عن الزواج بمنطق الجدل العقيم، وأخيراً سأله معلّم: ما هي أعظم الوصايا.

الصورة المعاكسة للمشهد السابق نراها في التقليد الرهباني. يأتي الرهبان إلى معلّم وشيخ في البرية ويطرحون عليه سؤالاً واحداً: "يا معلّم قُلْ كلمة لأخلص". قُلْ كلمة لنحياها فنحيا. المشهد الإنجيلـيّ الذي رأيناه يوضّح لنا إلى أيّ انحطاط روحيّ قادَ الدينَ قادةُ الدين. لقد توصلوا بالدين إلى الخلاف مع ربّ الدين. إنَّ الله يكره ديناً كهذا، الذي بدل أن يكون حلقة وصل صارَ أداة فصل بينه وبـين مـن اشتراهم بدمه الكريم.

أمَّا القسم الثاني فيحتوي على الويلات السبع الشهيرة التي وجّهها الربّ لمتديّني أيامه. وهذا يدل على أنَّ يسوع لم يكن راضياً عن الوضع الدينـيّ آنذاك. إنَّ يسوع وجَّه هذا التأنيـب الشـديد إلى الفريسيّين بالذات لأنّه كان يحبُّهم ويعجب لممارساهم الدينيّة الدقيقة، ولكنّه في الوقت نفسـه كـان يأسف عليهم إذ أنْهَوا قداستهم عند حدود، وهي الحدود الفريسيّة.

"اسهروا" هذا هو نداء صلاة الختن الثانية. على أيِّ أمرٍ نسهر؟ على عبادتنا بالذات، لكي تكون حقيقيّة لا سطحيّة. لا يفيد تعشير النعنع حين ننسى العدل والرحمة. هذا هو الخطر الذي يهدّد المؤمن، أن "ينام إلى الموت". تكريمُ وتفضيل التقدمات على المذبح الذي يُقدِّسها؛ والهيكلِ على الساكن فيـه؛

تصفية البعوضة بينما نبلع الجَمل؛ تنقية خارج الكأس بينما داخلها مملوء خطفٌ ودعارة... كلّ هذه مظاهر لمرض أساسيّ. إنّها عوارض السرطان الروحيّ الذي يهدّد الإيمان في كلّ زمن. أمَّا المرض فهو تحديد العلاقة مع الربّ الذي يحبّنا بعلاقة الواجبات. حينذاك يبدأ "بازار" المقايضات، والتنازلات، والتبرير. أو أنّنا نسقط في خدعة الوقوف عند البرّ الذاتي، وينقلب الدين من سلّم مُصعِدَةٍ إلى الله إلى حلقة تبرير تدور حول الذات. مَنْ يعتقد أنّه أوفى الله حقّه يعني ضمناً أنّه يريد إيقاف علاقته معه عند ذلك الحدّ. الذي يؤمن أنّه يحبّ كفايةً يبرهن أنّه لا يريد أن يحبّ أكثر؛ والمحبّة التي لا تريد أن تنمو هي كاذبة. لأنَّ المحبّة هي عكس الواجب. الثاني يعرف حدوداً أمَّا الأولى فلا تعرف إلاَّ طلب الأكثر. المحبّة جاذبية وبكلمة أخرى هي عشق إلهي، فمن بدأها ازدادت فيه، ومن لم تزْدَدْ فيه لم يعرفْها.

وربَّ سؤالٍ يُطرح، هل حفظ الوصايا بكاملها يعني إذن عدم الحاجة إلى توبة؟ نعم، هذا هو مرض فريسية الدهور. من وجهة نظر مسيحيّة حقَّة، إنَّ حفظ الوصايا يقود إلى التوبة. حفظ الوصايا يجعلنا أسرع في التوبة وأحرّ في المحبّة. ما نعرفه عن الذين تقدّموا في الروح أنّهم تابوا أكثر، بولس الرسول يقول "أنا أخطأ الناس". ما دامت الحياة المسيحيّة تعني حبّ الختن ومشاركته في رسالته وآلامه، فإنّنا كلّما خضنا في هذا الفردوس كلّما أدركنا وسع مداه... هذا هو فردوس الحياة مع الله، إنّه جمال كلّما عايناه كلّما أدركنا أنّه أعظم.

صراع الربّ إذن مع متديّني أيامه لم يكن حول النعنع أو التعشير... بل حول تجميد حبّه لنا وحبّنا له في حدود. هذه هي ديناميكية العلاقة مع الله؛ إنّها حين تبدأ، وإذا بدأتْ بشكلٍ صحيح، فمكتوب لها ألاَّ تقف بل أن تنمو وألاَّ تنتهي. هذا ما تعنيه بالذات محبّة الله. محبّة الله تعني أنّنا نزداد في حبّه. المحبّة الجامدة كاذبة، الرضى عن الذات خدعة تعني أنّنا لا نريد أن نحبّ بعد أكثر، وهذا يعني أنّنا لا نحبّ فعلاً. المحبّة طاقة وليست كميّة. وجودها يعني حركتها.

فَلَيَعُد كلّ مِنَّا إلى ذاته ليفحص طبيعة علاقته بالله، والتي غالباً ما نسمّيها واجبات. لنمتحن الصلاة، والصوم، والسجدات، والإحسان، والواجبات نحو القريب ونحو الأولاد والأهل... هل الواجبات كلّها هي الغاية المحدّدة وبالتالي لها حدود وتستطيع أن تنتهي عندها؟ أم هي فعلاً أداة تقودنا إلى ديناميكيّة الحبّ الإلهيّ الذي يقوم جماله على ازدياده باطراد؟

إذا كنَّا نعتقد أنّه علينا أن نصلّي عشرة دقائق، أو ساعة، أو ساعات، فإنّنا لا نعرف مـــا معـــنى الصلاة. أنا أستطيع أن أبدأ بالدقائق، ولكنّي أعرف أنّ نهاية بذرة هذه الصلاة هي سنابل الصلاة الدائمة بلا حدود. لغة العشق هي "الأكثر".

كلنا نحبّ الله، ولكن الخدعة التي تجعلنا "ننام إلى الموت" هي أنّنا نرسم لهذا الحبّ حدوداً، فنقلبه بالتالي إلى واجبات بينما هو الحياة عينها. فلنسهر إذن على عبادتنا بالذات!

إذا دخلنا المعبد، أو وقفنا وصلّينا، و لم نخرجْ بعدها ملتهبين أكثر بحبّ الله، فنحنُ لم نُصَلِّ. وإذا صمنا الأصوام كلّها و لم نتعشّق منها وجه المسيح فقد عذّبنا الجسد عبثاً. عندما سأل الفريسيّ المســيح عن أعظم الوصايا، أجابه: "المحبّة"، التي هي غاية كلّ تلك الوصايا.

الذهبي الفم يشرح لماذا سمّى المسيحُ العذارى الخمس جاهلات. ليس لأنَّهنَّ لم يحفظنَ الوصايا، بل بالتمام لأنَّهنَّ حفظنَ الوصايا كلّها، حتّى أصعبها غير المطلوبة من الجميع كالبتولية، لكــنّهنَّ نَسَــيْن الأهم: المحبّة. صارت الأداة عندهنَّ غاية تماماً، كحين يتألّه الدين ليقتل الإله. العبادة أداة والله هو الغاية. الدين كواجب هو فريسيّة ظالمة تُضيِّع الأتعاب عبثاً، أمَّا المسيحيّة فهي عشق يجعل الأتعاب خفيفة.

القدّيس غريغوريوس بالاماس يقول عن مصابيح العذارى العاقلات: إنَّ المحبّة هـــي الفتيـــل في القنديل، والزيت هو أعمال الفضائل، والشعلة هي نعمة الروح القدس. عندما ينقص زيت الأعمـــال تنطفئ المحبّة وتختفي شعلة الروح القدس التي لا ترتاح على فتيل بدون زيت الأعمال.

"فلنفعم يا إخوة الختن حبّاً ولنهيّئْ مصابيحنا لامعين بالفضائل
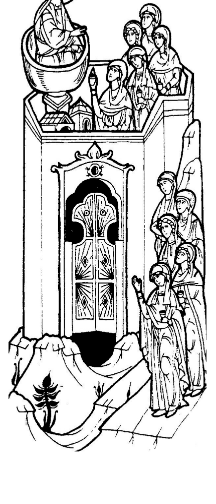
لكي مثل عذارى الربّ نلج مستعدّين معه إلى العرس". آميـــــن